

## الرسوم المسيئة بين تهافت المبدأ وواجب المقاومة

عبدالباقي خليفة \*

تجددت الاساءة العدوانية الدنماركية على ذات الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فترة من الزمن أعقبت تلك البذاءات ، مما يقدم دليلا جديدا على أن العدوان على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى الأمة تخضع لخطة ممنهجة ورائها قوى مختلفة ، وليست عملا فرديا ، وليست تعبيراً عن حرية التعبير كما يزعمون . مما يستدعي استمرار الانتصار للنبي صلى الله عليه وسلم عبر العديد من الفعاليات الاقتصادية والاعلامية الجماهيرية في أماكن كثيرة من أصقاع العالم ، لتوصيل رسالة واضحة من الأمة إلى الغرب ، الذي لم يستوعب بعد ، حجم ردود الافعال الصادرة عن المؤمنين الموحدين . الذين برهنوا على ولائهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنهم أمة لا تزال فيها قلوب تنبض بالايمن ، وعزيمة قادرة على مواجهة العدوان . اضطرت تلك الجهات في الغرب لتظهر في العراق فهي لم تكشف عن مدى تناقضها فحسب ، بل حجم بلادتها أيضا . كما بينت أحجام الاعتداءات الجديدة تناقضات الغرب وبلادته ، وكراهيته للاسلام التي عبر عنها الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بالقول إن " المبالغة في الكاريكاتير مطلوبة أكثر من المبالغة في الرقابة " وهو الذي منع تداول كتاب يتحدث عن حياته البائسة ، كما مارس ضغوطا لنزع ملصقات من محطات الميترو تتناوله شخصيا . وللمفارقة ، فإن القانون الفرنسي يمنع التعرض للحياة الشخصية للأفراد ، ولكن عندما يتعلق الأمر بالاسلام ، يحول ذلك إلى " حرية التعبير " دون تفريق بين الحرية والعدوان . فمن يحرض على الكراهية ، ويدعو لصراع الحضارات ؟ . ومع ذلك يستقبل ساركوزي في العواصم العربية بالاحضان وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعني لتلك الشخصيات حاملة الألقاب الكبيرة شيئا .

### حرية التعبير المعكوسة :

لقد تترس الغرب بحرية التعبير ، واعتبر الاساءة للرسول صلى الله عليه وسلم ، تدخل في هذا الإطار ، و اختفت بذلك كل الشعارات التي تتحدث عن منع ازراء الاديان والرموز الدينية ، ونشر الكراهية ، وتهديد الامن القومي ، والعلاقات الدولية ، التي كان يطرد ويهجر على أساسها المسلمون من بريطانيا وفرنسا ، وهولندا ، و ايطاليا ، والمانيا ، ويتجسس على أساسها على المسلمين ومساجدهم ومنازلهم وأماكن عملهم ، كما أشار إلى ذلك الامين العام لمنظمة المؤتمر الاسلامي الدكتور اكمال الدين احسان أغلو .

حرية التعبير التي لا يمكنها أن تتطرق لما يسمى الهلوكوست ، والرقم المقدس لمن يصفونهم بضحايا النازية من اليهود - الستة ملايين - لينسجم مع النجمة ذات الاضلاع الستة ، ليتمتع بقداسة في الغرب ، لم يحظ بها حتى المسيح عليه السلام ، وأمه ، فيشكك عليه السلام في أصله ، بل في ظهوره كشخصية تاريخية ، واتهمت أمه البتول عليها السلام ، بما لا يمكن ذكره بالحروف . حرية التعبير التي تباكت عليها الصحيفة الفرنسية " فرانس سوار " ودولتها التي منعت دخول كتاب الدكتور يوسف القرضاوي ، الحلال والحرام ، إلى فرنسا ، على ما فيه

من تيسير،بتهم واهية ، لا أصل لها . ومنع الحجاب في المدارس بحجة حماية الهوية الفرنسية . وقبل ذلك منعت فرنسا طباعة وبيع كتاب ، بروتوكولات حكماء صهيون ، وتمت ملاحقة المفكر روجيه غارودي قضائيا بسبب كتابه " الاساطير المؤسسة للصهيونية " .وفي بريطانيا وعلى إثر نشر إحدى الصحف ، تفاصيل مخطط ضرب قناة الجزيرة القطرية ، صدر قرار بمنع النشر ، وهددت الصحيفة بالملاحقة القضائية ، فأين حرية التعبير . وفي نهاية العام الماضي ،تم سحب لوحات فنية من فيينا تصور ،كل من الرئيس الاميركي جورج بوش ، والملكة اليزابيت ،وتوني بليروالرئيس الفرنسي ،من معرض كبير ، واعتبر ذلك اسفاوا وانحطاطا للفن . واختفت حرية التعبير كالعادة . وحوكم مسلم ايطالي بثمانية أشهر سجنا ، لانه اتهم بالقاء الصليب المعلق فوق سرير أمه باحدى المستشفيات ، واعتبر ذلك ازدراءا للاديان ، ودعوة للكراهية ، فلماذا يستكثر على المسلمين الاحتجاج على السفاهات الدنماركية ، ومن سينخرط في هذه الحرب الجاهلية الجديدة ضد الاسلام ونيبه الكريم صلى الله عليه وسلم . كما تم سحب دمية من الاسواق تسخر من بابا الفاتيكان ،بعد اتهامه بالنزوة وتقول الدمية " الآب والابن و الرايخ الثالث " بل أن الهالك الذي قام بنشر الصور المسيئة اعترف بأنه يستطيع تصوير موسى وعيسى ولكنه لا يستطيع تصوير شارون .

### مقارنات خاطئة :

لقد تساءل الكثير من الغربيين ، عما إذا كانت الصور التي يحتج عليها المسلمون ، أكثر إيذاء من مشاهد القتل في العراق ،ولا يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أعلى عندهم من العالم بأسره ، رغم أن مشاهد القتل في العراق وفلسطين والشيشان وكشمير تدمي قلوبهم . وهم ليسوا مثل النصارى الذين صمتوا صمت القبور على الاهانات التي وجهت عبر السنين الماضية للمسيح عليه السلام ، وأمه البتول ،وللكنائس في القدس وغيرها ، دون أن يحركوا ساكنا ،فإذا لم تكن لديهم الغيرة على دينهم ، كغيرة الرئيس الفرنسي الأسبق جاك شيراك على علمانيته ، عندما رفض القبول بالحجاب ، وهو شكل من اشكال التعبير ، فلماذا يلوموننا لاننا عبرنا عن غيرتنا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، و تلك وقاحة و بلاهة منهم ، غير مسبوقة . ويجدر بنا القول ، أن الاعتداءات التي تعرض لها السيد المسيح عليه السلام وأمه ، وسكوت المسيحيين عليها ، وكذلك المسلمين الذين يعتقدون بحق ،أنهم أولى بالمسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، كانت مقدمة لتمادي الجاهلية الغربية ،رغم أن الكثير من المسيحيين وللأسف ،وجدوا في التطاول على الرسول صلى الله عليه وسلم ،فرصة للتعبير عن أحقادهم ،ومن بينهم قساوسة ،رددوا ببيغائية ،السؤال ،عما إذا كانت الرسوم المشينة في الصحف الغربية ،أكثر إيذاء من مشاهد القتل .والجواب نعم بالتأكيد ، مصداقا لقول الصحابي الجليل خبيب ابن عدي رضي الله عنه للجاهلية الاولى ،عندما سألته قبل قتله ، أتود أن يكون محمدا مكانك فأجاب " والله ما وددت أن يصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشوكة وأنا في بيتي " فقالوا ، والله ما رأينا أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ، صلى الله عليه وسلم .

لقد تهاوت علة حرية التعبير ، والأمثال التي يضربها الذين لا يعقلون ، فأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ليسوا من أولئك الذين قالوا للنبيهم ، " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون " ولا من أولئك الذين أنكروا معرفتهم للمسيح عليه السلام ، عندما تعرضوا للابتلاء ، بل من الذين قالوا ، كلنا فداك يا رسول الله . أو كما قال مفتي كرواتيا الشيخ شوقي عمر باشيتش ، في خطبة الجمعة بزغرب " حرية التعبير لا تعني العدوان على الآخرين ، والسخرية من الاسلام ونبيه ، وإذا كان بعض أصحاب الديانات الاخرى استكانوا ، واستسلموا لمن يسخر بهم و دينهم ، فإن المسلمين ، تهون لديهم الحياة ، وكل شئ ، ولكن دينهم لا يهون عليهم " .

**فلول الردة :** لم يخل المشهد من الجرذان الفكرية التي تطل بأقلامها المسمومة ، عبر صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون ، ومواقع الانترنت التي تمول بأموال المسلمين ، وكعادتها في تنكرها للامة وشرفها ، ودينها وحضارتها ، وكيونتتها ، ومواصلة أداء دور الطابور الخامس ، داخل صفوفها ، انهالت نقدا وتجريحا للغيورين على دينهم ، ومعتبرة ذلك غوغائية ، بل اتهمت المستنكرين لتلك الرسوم ، بأنهم " يبرئون شكوكهم المكبوتة " . وهم كبعض الغربيين تماما ، مات لديهم الاحساس بمعنى الدين ، ومعنى العقيدة ، ولا يعظمون شعائر الله ، ورسله ودينهم . فالمسلمون لا يعتقدون أن تلك الرسوم " ستلحق دمارا شاملا بالاسلام " ، كما ذهب إلى ذلك بعض المنبئين ، فالاسلام حفظه الله ، ومر بموجات كثيرة من العدوان خرج من جميعها منتصرا ، ولكن حتى لا يتمادى السفهاء في غيهم ، بعد عملية جس النبض الأخيرة عبر وسائل الاعلام ، وحتى يعبروا عن حبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتجديد البيعة للرسول صلى الله عليه وسلم . وبراءة للذمة و انكار المنكر و أي منكر ؟!!! .

لقد وصف أحد الهالكين موقف الامة من جاکرتا إلى المغرب ، بأنه " ردود غوغائية تطالب بإعادة بوليس الفكر ، ومحاكم التفتيش " وتساءل " أليست المطالبة بمحاكمة الصحافيين ارهايا فكريا " ، وكأن حرية التعبير ، والسخرية من النبي صلى الله عليه وسلم ، سيان ، وسنوان لا يفترقان . وهو ومن على شاكلته لم يرتقوا حتى لما قاله بعض الغربيين سياسيين ومتقفين وغيرهم ، من الذين عبروا عن استيائهم من الرسوم واعتبروها غير لائقة .

### **المواقف الايجابية :**

لقد عبرت الامة يوم الجمعة ٢٢ فبراير ٢٠٠٨ م وقبل ذلك ، رغم الحاجة للمزيد من الزخم الجماهيري و الاعلامي ، عن حبها للرسول صلى الله عليه وسلم ، وسرت الحياة في الكثير من الانفس الغافلة ، وشحنت المسيرة الاسلامية في الشرق والغرب ، بتيار الولاء والايمان ، وعاد للمساجد الكثير ممن لم يدخلوا في حياتهم ، بيتا من بيوت الله ، وارتدت الحجاب من كانت تاركة له ، وأعلن الانتماء للاسلام وحركاته المناضلة من كان يعيبها ولا يابه لذلك . بل دخل في الاسلام من الدنماركيين الكثير حتى أن عدد المسلمين ارتفع ثلاث مرات في الدنمارك لوحدها . لقد حقق الاسلام نصرا جديدا ، وانقلب الحزن استعلاء على الجاهلية ، وتحديا لها . وعقدت في العديد من الفضائيات ندوات عن كيفية مواجهة الهجمة الشرسة التي يتعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون في الغرب . وتشكبت العديد من اللجان المخصصة للدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وارتفعت أصوات من داخل المنظومة العربية الرسمية ، على غير العادة ، بمطالبة الامم المتحدة إصدار قرار

بمنع الاعتداء على الرموز الدينية . واستدعت مصر سفير الدانمارك للاحتجاج على إعادة نشر الصور المسيئة .وقدمت مقترحات لإنشاء فضائيات ناطقة باللغات الغربية ، للتعريف بالرسول صلى الله عليه وسلم ، كما أعلن الشيخ عبد المجيد الزنداني مؤخرا .واعتبرت تلك الاعتداءات فرصة لتجديد البيعة للرسول عليه الصلاة و السلام ، والدعوة لاقامة حوارات وندوات حول الاسلام في الغرب . وأظهرت المقاطعة الاقتصادية السابقة ، أن الذي ( تألم و تأذى ) ليس المسلمون ، وإنما تجارة الغرب ، واقتصاد الغرب ،حتى بدأت الشركات الدانماركية تتوسل لحكومة كوبنهاغن ، لتقديم اعتذار للمسلمين ، بعدما ارتفعت خسائرها إلى مليوني يورو يوميا . واعلنت شركة ماركلا في ٢٧ فبراير نها سرحت ٣٠ في المائة من عمالها بسبب المقاطعة الاسلامية .وعبر رئيس تحرير الجريدة سيئة الذكر في الدنمارك ، في وقت سابق عن ألمه ،واحساسه بالعار ،لأن المسلمين انتصروا على حد تعبيره ،مما دفعه لاعادة نشر الصور . وقال مدير تحرير صحيفة ، فرانس سوار ، إن الغربيين يركعون للاسلام . وتحولت تلك الرسوم التي هدفت الجهات التي تقف وراءها ، إلى تأزيم الموقف بين الغرب ،ولا سيما أوروبا ،والعالم الاسلامي ، ومنع انتشار الاسلام في العالم ، إلى نصر للاسلام والمسلمين ، بعد ردود الافعال من قبل عدد من الشخصيات من بينهم الرئيس الاميركي الاسبق بيل كلينتون ، الذي عبر عن خشيته من تحول ما وصفه بالعداء للسامية ، لعداء للاسلام . بينما أظهرت تلك الاساءات عدد من المراكز الغربية على حقيقتها ، حيث صمتت صمت القبور ،وغيره من المنتديات ،والامم المتحدة ، التي نادى في السابق لما يسمى ، حوار الحضارات ، التي لم يعد ما يبرره الآن ،على حد قول اكمل الدين أوغلو الامين العام لمنظمة المؤتمر الاسلامي .

### رد اعتبار واحتقار :

تحدثنا قبل قليل عن تراجع النمسا في وقت سابق عن عرض صور لقادة غربيين تناولهم رسامون بالنقد و التجريح ، لكن الفارق في كون حرمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يمكن أن تقارن بأي بشر آخر على الاطلاق ، فضلا عن أشخاص ملوثة أيديهم بالدماء ، وألسنتهم بالكذب ،مثل بوش وساركوزي . أما ردود الافعال فكانت مختلفة ، حيث استجابت اللجنة النمساوية ، المشرفة على أعمال الفنانين الأوروبيين ، لطلب الحكومة النمساوية ،والداعي لإزالة جميع الملصقات التي وصفتها بالأخلاقية ، والتي تم توزيعها في الأماكن المخصصة للإعلانات في الشوارع الرئيسية ،والساحات العامة . وتضم صورا فاضحة لبوش والرئيس الفرنسي . وقد شمل هذا الإجراء إزالة ٣ لوحات مثيرة للجدل ، وأثارت ما وصف في بعض وسائل الاعلام ب " حملة من الاستياء والاستنكار في مختلف الأوساط السياسية والحزبية والرأي العام ،ليس في النمسا فحسب ،بل وفي غالبية عواصم دول الاتحاد الأوروبي " ( انظر ) ، من بينها لوحة تصور ثلاث نساء يحملون أقمعة تمثل ملكة بريطانيا اليزابيث الثانية والرئيس الأميركي جورج بوش والرئيس الفرنسي ، وهم " في أوضاع جنسية مشبوهة " ولم توصف تلك اللوحات بأنها تعبير عن الحرية ، وحقوق الانسان ، وعدم تقيد الفن باي قيود أخلاقية ، كما قيل في برنامج على الفضائية المصرية مؤخرا ، حول علاقة الابداع بالاخلاق ( البرنامج هو ،حالة حوار) وإنما وصفت تلك اللوحات في الغرب بأنها " تعبر عن مدى انحطاط فن الرسم الإباحي " ( هكذا ) . و لم تأبه الحكومة

النمساوية باتقاد الفنانين الأوروبيين المشاركين في المشروع الفني ، لقرارها بإزالة الصور واللوحات من الشوارع والساحات العامة في فيينا، واعتبروا هذا الإجراء " رقابة حكومية مبرمجة "، وتشكل " انتهاكاً للحريات العامة وبينها حرية الفن والتعبير". وقال المسؤول النمساوي عن المشروع الفني الذي حمل عنوان ، ٢٥ لوحة فنية أوروبية ، والذي رفض الكشف عن اسمه، " إن هذه الملصقات هي جزء من سلسلة لوحات فنية أطلق عليها اسم ، يورو بارت ، وأنجزتها قرائح فنانين مرموقين من جميع الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي"، مشيراً إلى أن " تلك اللوحات تمثل مختلف أوجه الحياة السياسية والاجتماعية والتاريخية وتطور مدارس الرسم التعبيري في القارة الأوروبية ". ومما ساهم في إحراج الحكومة النمساوية أنها قدمت للمشروع الفني الأوروبي والقائمين عليه مبلغ مليون يورو، خصصت للمساهمة في تمويل عملية رسم الأعمال الفنية الأوروبية، والتي من المقرر أن تظل معروضة في المواقع المخصصة للإعلانات التجارية في معظم أحياء العاصمة النمساوية وشوارعها آنذاك ويضم المشروع الفني ١٥٠ لوحة وصورة من بينها ثلاث فقط تتضمن أشكالاً جنسية، " أثارت موجة من الاستياء في مختلف الأوساط السياسية والإعلامية " ، حيث " ارتفعت أصوات سياسية وحزبية ودينية وإعلامية تطالب بنزع جميع الصور والملصقات واللوحات الإباحية فوراً من الشوارع والساحات العامة في العاصمة النمساوية فيينا التي تتألف من ٢٣ حياً .

### **ماذا سيفعل المسلمون :**

في الجانب الآخر ، لم نر أي انتقاد غربي يرقى لمستوى الجناية ،سواء على المستوى السياسي أو الاعلامي لاساءة ١٧ صحيفة دانماركية الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن سب رسول الاسلام والاسلام و المسلمين ، كما يبدو ، هو فقط من يندرج تحت مسمى حرية التعبير في الشرق والغرب . وأغرب من ذلك موقف الحكومة الدانماركية من تلك الاساءة البالغة لمشاعر مليون و ربع المليون مسلم في العالم . فهي لم تعتذر ولم تطلب من الصحيفة الاعتذار ، بل دافعت عن ذلك .وهذه إساءة أخرى ،وكانت صحيفة "جيلاندز بوستن" نشرت ١٢ رسماً كاريكاتورياً مسيئاً قبل عدة سنوات ، ثم أعيد نشرها مؤخراً مما أثار غضب المسلمين في الدنمارك والخارج خصوصاً وأن أحد الصور تظهر ما وصفته بالنبي محمد ( صلى الله عليه وسلم ) يبدو في أحدها معتمراً عمامة ووسطها قنبلة . بزعم أن ثلاث شبان مسلمين خططوا لقتل رسام الكاريكاتير ، ولذلك أعادوا نشر الرسوم المبتذلة . فكيف يساء لنبي كريم صلى الله عليه وسلم وأمة يبلغ عديدها مليار ونصف المليار نسمة بسبب نوايا لثلاث أفراد لم يتم إثباتها قضائياً حتى الآن . هذه العدالة الغربية ، فهل يستمر المسلمون في شراء تلك البضائع ، أم يقاطعونها إلى حين ، أم يضعون استراتيجية للتحرك داخل الأمة لانقاذها مما يتهدهدها من غزو عسكري وثقافي وديني .ومن محاولات ممنهجة لابعادها عن دينها وعقيدتها تمهيدا للاجهاز عليها ،وهي ميتة .قال تعالى "يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم " فالأمة بين الحياة التي يدعو إلى القرآن الكريم ،والموت الذي تهى له الفضائيات والاعلام والسياسات وغير ذلك مما لا يخفى على أحد .وهو ما يحتاج لجهد ناصب ، لرد الأمة إلى دينها ،ورد العدوان على أعقابه . وذلك فريضة وضرورة ،من أجل البقاء .

\* كاتب عربي مقيم في البلقان